الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
Emir Abdelkader University of Islamic sciences
Constantine

Faculty:		أصول الدين	كلية:
Departement:		الكتاب والسنة	قسم:

عنوان المطبوعة

Title of the Dissertation

✓ مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة:	✓ السداسي:
Academic Pedagogical Publication Addressed to:	Semester:

Domain:		محاضرات في فقه شمائل النبي صلى الله عليه وسلم	✓ الميدان:
Field or subfield:			✓ الشعبة:
Specialization:		الحديث وعلومه	✓ التخصص:
Submitted by:		حميد قوفي	إعداد الأستاذ(ة):

Submitted by: ---------- اعداد الأستاذ(ة): حميد قوفي

السنة الجامعية (Current Academic Year):

محاضرات
في فقه شمائل النبيّ
صلى الله عليه وسلم

الدكتور حميد قوفي
أستاذ الحديث وعلومه
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة- الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

إن الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن سيرته وشمائله وسنته نعمة من نعم الله علينا، والسعيد مَن وفِّق لذلك، ذلك أنّ من أكبر النعم بعثةُ النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم تلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين). وإننا نحن المسلمين إذا تحدّثنا عنه صلى الله عليه وسلم إنّما نتحدّث بهذه النعمةِ، وقد جاء في القرآن قوله تعالى: (فأمَّا بنعمة ربك فحدّث)، فعلى المسلم أن يتحدّث بهذه النعمةِ في كلِّ أحيانه، ولا يفتر عن ذكر محاسنه صلى الله عليه وسلم وطيب سيرته وشمائله. وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يحبّ أن يرى أثر نعمتِه على عبده". وأثر هذه النعمة يظهر في الاعتصام بالسنّة والتحاكم إليها في القليل والكثير، وبالاتباع والاقتداء، والمنافحة عنه والدفاع عن سنته.

وإنّ الله تعالى قد بعثه رحمة للعالمين، فزيّنه بزينة الرحمة، فقال(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، وقال عن نفسه تحقيقًا لذلك كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة" (صحيح). فكانت حياته كلّها رحمة، وسنّته رحمة، وتشريعاته رحمة، وقوله رحمة، وفعله رحمة، وأمره رحمة، ونهيه رحمة، وبمقدار العلم به والمتابعةِ له صلى الله عليه وسلم تنال من الرحمة، فالعاقل من يحرص على ذلك كله.

ولنعلم كذلك أنّنا سنمتحن به في القبور امتحانا صعبًا، وسنسأل عنه، ولا يحسبنّ أحد أنّ الأمر هيّن سهل، فقد جاء في حديث أسماء بنت أبي بكر: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال:"...لقد أوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدّجال، يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأمّا المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، هو محمد ثلاثا. فيقال له: نم صالحا قد علمنا إن كنت لموقنا به، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته" (صحيح)، فالعاقل من يعدّ الجواب لذلك اليوم الشديد، ألا ترى من هذا أنّ الجهل بالنبي صلى الله عليه وسلم وبسنته فتنة عظيمة في الدنيا والآخرة؟

فحريّ بنا أن نستنهض الهمم لمعرفة سنن النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته وشمائله، وأمره ونهيه، لأنّ مصائرَنا في الدارين معلقةٌ بهديه صلى الله عليه وسلم، ونجاتَنا مربوطةٌ بسنته، ووالله لا نجاة لأحد إلا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الصغير والكبير، بل في أموره كلها، قال الإمام ابن القيم: (إذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فيجب على كلّ

من نصح نفسه، وأحبّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[1].

وأن الذلةَ كلَّ الذلةِ، والصغارَ كلَّ الصغارِ في مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم، والصدودِ عن هديه ومنهجه؛ فقد جاء في حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "...جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذلةُ والصَّغارُ على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم" (صحيح)، يصدق هذا قوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم). والفتنة هنا القتل، قاله ابن عباس. وقال عطاء: الزلازل والأهوال. وقال جعفر بن محمد: سلطان جائر يسلط عليهم. وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والعجب أنّ أكثر المعترضين على السنّة والصادين عن هديه صلى الله عليه وسلم، وأحكامه هم المترفون، وأصحاب الدعة والأرائك، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم منهم كما جاء في حديث المقدام بن معدي كرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، وإنّ ما حرّم رسول الله كما حرّم الله" (صحيح) والمعنى أن ما لم يجدوه صريحا في القرآن لم يؤمنوا به ولم يعملوا بمقتضاه، وإن صحّ ثبوته بالسنة، فهؤلاء في خطر جسيم، وفتنة عظيمة. (إن الله تعالى أمر بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في أكثر من ثلاثين موضعا في القرآن، وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يذكر الله إلا ذكر معه)[2].

فالمسلم بحكم إسلامه، وإعلانه شهادة التوحيد: يلزمه طاعة رسوله وتصديقه بما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، ولا يعبد الله إلا بما جاء به صلى الله عليه وسلم، ويعظم أمره ونهيه، فلا يقدّم قول أحد-كائنا من كان- على قوله.

فهل تُرى نحن ملتزمون سنته في أمورنا كلها- عباداتنا ومعاملاتنا- على ما يرضاه عنا، هل صلاتنا كصلاته؟، وهل صيامنا كصيامه؟، وهل تربيتنا لأولادنا على خلقه وهديه؟، وهل عشرتنا للأزواج كعشرته لأزواجه؟ هل أخلاقنا كأخلاقه؟...الخ.

إنّ هذه المحاضرات التي بين يدي الطالب الكريم أريد من خلالها تحقيق جزء من الواجب تجاه النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو التعريف به وبشمائله العطرة، وما يتعلّق بها من أحكام ودلالات إيمانية، وقد انتقيت منها فصولا بما يقتضيه الحال، ولم أستوعب ذلك، واعتمدت المقبول من الروايات، صحيحها وحسنها بأقسامهما، راجيا أن أكون قد حقّقت بعض المطلوب، والله أسأل القبول والرضا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الدكتور حميد قوفي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة في 25 ماي2013

---

[1]- زاد المعاد. ابن القيم 1/69-70 (ت: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط)

[2]- مجموع الفتاوى. ابن تيمية 19/103

المحاضرة الأولى

تمهـيد

مما ينبغي علمه ابتداء– قبل الحديث عن الشمائل– أن العلوم المتّصلة بشخص النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعة: السيرة، والشمائل، والخصائص، والدلائل. فهذه علوم تتعلّق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، وأمّا العلوم الأخرى كعلوم الحديث والفقه، إنّما هي خادمة لهذه العلوم ومستنبطة منها، فدراسة علم مصطلح الحديث الغاية منه معرفة ما صحّ وما لم يصح في السيرة والشمائل والخصائص والدلائل، وعلم الفقه الغاية منه استنباط ما جاء فيها أحكام وهكذا...

أمّا علم السيرة فهو دراسة حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم من المولد إلى الوفاة،. وعلم الشمائل هو دراسة الصفات الخَلقية والخُلقية للنبي صلى الله عليه وسلم. وعلم الخصائص هو دراسة ما اختصّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم دون سائر البشر، أو ما اختصّ به هو وأمّته على سائر الأنبياء، سواء في الدنيا أم في الآخرة. وعلم الدلائل هو دراسة علامات النبوة من معجزات وغيرها. وبهذا يكون مدلول السيرة أعم مما ذكر من العلوم.

أهمية معرفة شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وثمراتها

1– من موجبات الإيمان معرفة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فهو رسول من ربّ العالمين للناس كافة، ولا يعذر أحد بجهله، وكيف يجهله العبد وهو ممتحن به في قبره؟ كيف لا يعدّ الجواب لذلك اليوم، وهذا الجواب بلا شكّ هو معرفته واتباعه.

2– أمرنا الله باتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم والاقتداء به وطاعته، فكيف يحقّق العبد كل هذا وهو لا يعرف نبيّه؟ وقد بين الله طريق النجاة باتباعه صلى الله عليه وسلم، والنجاة غاية العبد، ولا ينالها إلا بمعرفة النبي صلى الله عليه وسلم.

3– معرفة الشمائل تحقق محبّة العبد لنبيّه صلى الله عليه وسلم بما يجد من الخصال الحميدة والأوصاف الكاملة التي لم تتحقّق في بشر كما تحقّقت في شخصه صلى الله عليه وسلم، مما يزيد في الإيمان به وتعظيمه وبالله الذي اصطفاه على تلك الشمائل.

4– معرفة شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وخصاله تعصم العبد من الخرافة والاعتقاد الفاسد، ذلك أن سيرته وشمائله منبع صافٍ للتوحيد الخالص، والمتّبع له معصوم من تلك المعتقدات الباطلة، والأوهام الزائغة.

5– معرفة شمائل النبيّ صلى الله عليه وسلم سبيل للحلّ الأمثل لكلّ مشاكل الإنسان، ومخرج من كلّ حرج، وفرج من كلّ ضيق، ولو اتصل الناس بالنبيّ صلى الله عليه وسلم معرفةً واتباعًا لسعدوا في الدارين.

المصنفات في الشمائل

صنف العلماء في شمائل النبي صلى الله عليه وسلم مصنفات كثيرة، بعضها متضمنة في كتب السيرة، وبعضها مفردة، ولا يسع المقام لسردها كلها، وإنما اكتفي بذكر طائفة منها:

- صفة النبي صلى الله عليه وسلم. لأبي البختري وهب بن وهب الأسدى (ت: 200هـ)
- صفة النبي صلى الله عليه وسلم. لأبي الحسن، علي بن محمد المدائني (ت: 224هـ).

- صفة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم. لداود بن علي الأصبهاني (ت270هـ).
- كتاب "الشمائل "للإمام الترمذي) ت: 279هـ)
- أخلاق النبي وآدابه. للشيخ عبدالله بن محمد بن حيان الأصبهاني (ت: 369هـ).
- شرف المصطفى. لأبي سعيد عبدالملك بن محمد النيسابوري (ت: 406هـ).
- شمائل النبيّ. لأبي العباس المستغفري (ت: 432هـ)
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى. للقاضي عياض) ت: 544 هـ).
- الوفاء بأحوال المصطفى. لابن الجوزي) ت597هـ)
- شمائل الرسول ودلائل نبوته وخصائصه. لابن كثير) ت: 774هـ)
- مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا. للحافظ السيوطي (ت: 911 هـ)
- شرح الشفا. لعلي القاري (ت1014هـ)
- نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض. لشهاب الدين أحمد الخفاجي. (ت: 1069هـ)

في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم الخَلقية

خصّ الله الأنبياء بخصائص كثيرة، ومنها كمالُ الخلقة، وجمالُ الصورةِ وحسنُ الهيئة، ولما كانوا أول الدعاة إلى الله ناسب أن يكونوا على تلك الصورة الكاملة الجميلة، لأنّ الصورةَ الجميلةَ والهيئة الحسنة تنجذب لها النفسُ، وتتلقّاها بقبول حسن، والناسُ يمتّعون أنظارهم بما يستحسنونه من المناظر الجميلة، و(الإنسان إذا بدَا في الهيئة الجميلة؛ كان أدعى لانبساط النفس إليه، فيقبل قولُه، ويحمد رأيه، والعكس بالعكس)[3]، ومن أجل هذا خلَق الله جميع الأنبياء على أكمل صورة لما لها من التأثير على شخص المتلقّي. وقد روى ابن سعد عن قتادة قال: (ما بعث الله نبيًّا إلا بعثه حسنَ الوجه حسنَ الصوت حتى بعث نبيَّكم فبعثه حسَنَ الوجهِ حسَنَ الصوْت)[4].

من صور جمال الأنبياء وحسنِهم في السنّة النبويّة

وصف إبراهيم عليه والسلام

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في قصّة إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام: «... فلمّا جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت [زوج إسماعيل عليه السلام]: نعم، أتانا شيخ حسنُ الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني: كيف عيشُنا؟ فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك». [البخاري].

وصف يوسف عليه السلام

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال- في قصّة الإسراء-: «ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم إذا هو قد أعطي شطرَ الحسن فرحّب ودعا لي بخير» [مسلم].

وصف عيسى عليه السلام

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: «رأيْتُني اللّيلة عند الكعبة، فرأيت رجلا آدم، كأحسن ما أنت راء من أُدم الرّجال، له لِمّة كَأحسن ما أنت راء من اللّمم، قد رجّلها، فهي تقطر ماءً، متّكئًا على رجُلين أو على عواتق رجُلين يطوف بالبيت، فسألت: من هذا؟"، فقيل: هذا المسيح ابن مريم ... الحديث». [البخاري].

---

[3]- فتح الباري، ابن حجر 339/10

[4]- الطبقات الكبرى. ابن سعد 376/1

صور من جمال النبيّ صلى الله عليه وسلم

تعدّدت أوصاف النبيّ صلى الله عليه وسلم الخَلقية والخُلقية في أحاديث كثيرة يرويها الصحابة عنه، وقد حرصوا على نقلها بشكل شامل ودقيق، وصفاته صلى الله عليه وسلم صفات جمال وكمال بشريّ لا يضاهيه فيه أحد من الخلق، ولا يسع هذه الورقات سردها، لكن أجتزئ بعضا من الصفات الخَلقية:

فعن أنس بن مالك أنه سمعه يقول: (كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط، ولا بالسبط، بعثه الله على رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله عز و جل على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء صلى الله عليه و سلم. [البخاري ومسلم]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم «مربوعا، بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنه، رأيته في حلة حمراء، لم أر شيئا قط أحسن منه» [منفق عليه].

وعن البراء رضي الله عنه قال: (كان النبيّ صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خَلقًا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير). [متفق عليه]. —

وعن أنس بن مالك رضي الله: "كان رسول اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم حسنَ الجسم". [متفق عليه].

وعن جابرِ بن سمرةَ رضي اللهُ عنه قال: "رأيتُ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم في ليلة إِضْحِيَانَ[5] فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيه وَإِلَى القَمَرِ، فإذا هو عندي أحسنُ من القمرِ".[الترمذي].

وعن البراء رضي اللهُ عنه: أكان وجهُ النبي صلى الله عليه وسلم مثلَ السّيفِ؟ قال: لا، مثلَ القمرِ". [البخاري].

وعن جابر بن سمرة، يقول: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شمط مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا ادهن لم يتبين، وإذا شعث رأسه تبين، وكان كثير شعر اللحية، فقال رجل وجهه مثل السيف؟ قال: لا، بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديرا، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده). [مسلم].

وعنه أيضا قال: (كان أزهرَ اللّونِ ليس بأبيضَ أَمْهقَ ولا آدمَ). [متفق عليه]. وفي رواية عَنْ عليّ رضيَ اللهُ عنه قال: (.. مُشربًا بياضه بحُمرةٍ). [مسلم].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه). [البخاري].

عن قتادة، قال: قلت لأنس بن مالك: "(كيف كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان شعرا رجِلا ليس بالجعد ولا السبط بين أذنيه وعاتقه) [مسلم]

---

[5]- ليلة مقمرة.

وعن أنس رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضرب شعره منكبيه) [مسلم]

وعن أنس قال: «كان شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنصاف أذنيه» [متفق عليه]

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضليع الفم، أشكل العين منهوس العقبين» قال: قلت لسماك: ما ضليع الفم؟ قال: «عظيم الفم»، قال قلت: ما أشكل العين؟ قال: «طويل شق العين»، قال: قلت: ما منهوس العقب؟ قال: «قليل لحم العقب» [مسلم]

وعن أنس رضي اللهُ عنه قال: "ما مسستُ حريرًا، ولا ديباجًا أَلْيَنَ من كفِّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولا شممتُ رِيحًا قطّ أو عرفًا قطّ أطيبَ من ريحِ أو عَرْفِ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم". [متفق عليه].

وعن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه و سلم شثن القدمين والكفين). [البخاري].

وعن عليّ رضي الله عنه قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل ولا بالقصير شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس طويل المسربة، إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم. [الترمذي].

المحاضرة الثالثة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في العناية بالمظهر الحسن والحرص على النظافة

دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى العناية بالمظهر الحسن وإلى التجمّل، وحَبّب في ذلك وحثّ عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجَنّة مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر» فقال الرجل: يا رسول الله إنّ الرّجل ليحبّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. فقال: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال، الكبر بطر الحقّ، وغمط الناس». [مسلم].

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنّ رجلا أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً جميلا فقال: يا رسول الله إنّي رجل حبّب إليّ الجمال، وأُعطيت منه ما ترى حتى ما أحبّ أن يفوتني أحد[6]– إمّا قال بشراك نعلي وإمّا قال بشسع نعلي– أفَمِن الكبر ذلك؟ قال: «لا، ولكن الكبر من بطر الحقّ، وغمط الناس). [أبو داود].

قال المناوي في شرح هذا الحديث: (إنّ الله جميل أي له الجمال المطلق؛ جمالُ الذات، وجمالُ الصفات، وجمالُ الأفعال. يحبّ الجمال: أي التجّملَ منكم في الهيئة، أو في قلّةِ إظهار الحاجة لغيره والعفاف عن سواه)[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله "يحبّ الجمال" أي: يحبّ أن يتجمَّل العبد له ويتزيّن، كما قال تعالى: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 31][8].

وحسن المظهر في السنة يتجلى في صور عديدة منها:

الحرص على النظافة

فالنظافة مظهر من مظاهر التجمّل، وقيمة من القيم المحبوبة للنفس، وهي خلق من أخلاق الإسلام التي حثّ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقد أرشدت سُنّتهُ إلى التزام ذلك في أحاديث كثيرة، ولا شكّ أنّ للنظافة صلةً بصحّة الأبدان وجمالها، ومن ذلك الأمر بالوضوء للصلاة والاغتسال ليوم الجمعة وغيرها[9]، واستعمال الطيبِ وكذا السواك، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

---

[6]– قال الحافظ ابن رجب: (... فإنما فيه أنه أحبّ أن لا يعلو عليه أحد، وليس فيه محبّة أن يعلو هو على النّاس، بل يصدق هذا أن يكون مساويًا لأعلاهم، فما حصل بذلك محبة العلو عليه والانفراد عنهم، فإن حصل لأحد فضيلة خصصه الله بها عن غيره فأخبر بها على وجه الشكر، لا على وجه الفخر كان حسنًا كما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: " أنا سيّد ولد آدم ولا فخر، وأنا أوّل شافع ولا فخر". وقال ابن مسعود: لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منّي تبلغه الإبل لأتيته). فتح الباري 42/1.

[7]– التيسير بشرح الجامع الصغير. المناوي 501/1.

[8]– منهاج السنّة. ابن تيمية 315/5.

[9]– أنواع الاغتسال كثيرة منها الواجب ومنها المستحب، فالواجب منها الاغتسال من الجماع والاغتسال من الانزال بالاحتلام ونحوه والاغتسال من الحيض والاغتسال من النفاس، والاغتسال للجمعة – على رأي–. ومن أنواع الاغتسال المستحب: الاغتسال للجمعة – على رأي– والاغتسال للعيدين، والاغتسال لغسل الميت، والاغتسال للإحرام، واغتسال من أسلم بعد كفر – على رأي–.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين، فمن جاء إلى الجمعة فليغتسل، وإن كان له طيب فليلمس منه، وعليكم بالسواك". [ابن ماجه]. لما في ذلك من البعد عن إيذاء المصلّين بمظهره أو رائحته.

ومن السلوك المنهيّ عنه مما يسبب إيذاء الناس ويوجب النفور والضجر والاشمئزاز ما ثبت من حديث معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل".

وكذلك جاء نهيه عن أكل البصل والثوم لمن يأتي صلاة الجماعة، كما ثبت ذلك في حديث جَابِر بن عبدِ الله قال: قال النّبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم: "مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ – يُرِيدُ الثّومَ– فَلَا يَغْشَانَا فِي مَسَاجِدِنَا" [متفق عليه]. وفي رواية: "من أكل من هذه الشجرة– يعني الثوم– فلا يأتين المساجد" [مسلم]. وفي رواية أخرى: "من أكل من هذه البقلة الثوم – وقال مرة من أكل البصل والثوم والكراث– فلا يقربن مسجدنا؛ فإنّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم". [مسلم].

اختيار أحسن ما توفّر من الطيب

فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم صاحب الذوق المرهف كان يحبّ أن يتطيب بأحسن ما يتوفّر له من العطر والطيب، ذلك ما حكت عنه عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أطيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطيب ما أجد حتى أجد وبيص الطيب في رأسه ولحيته) [البخاري]. وفي رواية: قالت: (كنت أطيب النبيّ صلى الله عليه وسلم عند إحرامه بأطيب ما أجد) [البخاري]. وقد بوّب له البخاريّ: باب ما يستحب من الطيب.

قال الحافظ ابن حجر: (كأنه –يعني البخاري– يشير إلى أنّه يندب استعمال أطيب ما يوجد من الطيب، ولا يعدل إلى الأدنى مع وجود الأعلى). وفي رواية عروة سأل عائشة: (بأيّ شيء طيبتِ النّبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم قالت بأطيبِ الطِّيب). [أحمد والنسائيّ]

قال أنس رضي الله عنه: (ما شممتُ عنبرًا قطُّ، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيبَ من ريحِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ولا مسستُ شيئًا قطُّ ديباجًا ولا حريرًا ألينَ مسًّا من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ). [مسلم].

الاعتناء بحسن الهيئة وترتيب الهندام

فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحرص على الظهور بمظهر حسن، ومن ذلك أنّه كان يحبّ البياض في الثياب، ويحثّ عليه، كما ثبت ذلك في أكثر من حديث، ومن ذلك: ما صح من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم). [البخاري]. ومن سمرة بن حندب رضي الله عنه قال : قال: "البَسوا البياض؛ فإنها أطيب وأطهر، وكفنوا فيها موتاكم". [الترمذي].

وفي رواية عن ابن عباس: "البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنّها خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم". [أبو داود].

وقد لبس النبيّ صلى الله عليه وسلم من مختلف ما يلبس في زمانه فكان (يلبس ما تيسر من اللباس، من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة، ولبس البرودَ اليمانيةَ والبردَ الأخضرَ ولبس الجبّةَ والقَباءَ والقميصَ والسراويلَ والإزارَ والرداءَ والخفَّ والنعلَ وأرخى الذؤابةَ من خلفه تارةً وتركها تارةً)[10].

قال الشوكاني: (فلبسُ المنخفض من الثياب تواضعًا وكسرًا لسورة النفس التي لا يؤمن عليها من التكبر إن لبست غالي الثياب من المقاصد الصالحة الموجبة للمثوبة من اللّه، ولبسُ الغالي من الثياب عند الأمن على النفس من التسامي المشوب بنوع من التكبّر لقصد التوصّل بذلك إلى تمام المطالب الدينية من أمر بمعروف أو نهي عن منكر عند من لا يلتفت إلا إلى ذوي الهيئات كما هو الغالب على عوام زماننا وبعض خواصه لا شكّ أنه من الموجبات للأجر، لكنه لا بد من تقييد ذلك بما يحل لبسه شرعًا)[11].

وسوء المظهر والصورة مما يَنفُر منه الناس، فلا تتحلى بتلك الرداءة فيمقتك ناظرُك ويعرض عنك رفيقُك، وينفر منك جليسك، وفي سنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم وجدنا إنكارًا منه ونفورًا ممن لبس الرديء من الثياب مع ثوران الرأس واللحية، فروى مالك من حديث عطاء بن يسار قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن اخرُجْ -كأنّه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته- ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أليس هذا خيرًا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان». فانظر كيف كان حرص النبيّ صلى الله عليه وسلم على تحسين هيئات أصحابه، وعنايته بمظاهرهم ما جعله يطرد ذلك الرجل من المسجد لما رأى منه من رداءة الهيئة وسوء المنظر حتى شبهه بالشيطان.

قال الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله: (وهذا عندي أصل في إباحة التزين والتنظف كله ما لم يتشبه الرجل في ذلك بالنساء وإنما استثنيت ذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال". وهذا على العموم إلا أن يخصه عنه شيء صلى الله عليه وسلم فالتزين والتنظف مباح بهذا الحديث وغيره ما لم يكن إسرافا وتنعما وتشبها بالجبارين..)[12].

وعن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى رجلا شعثا قد تفرّق شعره، فقال" «أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره؟». ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة فقال: «أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه». [أبو داود والنسائي].

وعن أبي الأحوص عن أبيه أنّه: (أتى النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب دون، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ألك مال؟» قال: نعم، من كل المال. قال: «من أيّ المال؟». قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: «فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك أثر نعمة الله وكرامته». [النسائي]. وفي رواية: قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني سيئ الهيئة فقال النبي

---

[10]- زاد المعاد. ابن القيم. 143/1

[11]- نيل الأوطار. الشوكاني 162/3.

[12]- التمهيد. ابن عبد البر 51/5

صلى الله عليه وسلم: «هل لك من شيء؟» قال: نعم من كل المال قد آتاني الله. فقال: «إذا كان لك مال فلير عليك». [النسائي].

بل وفي الظروف الحالكة الحرجة يأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتحسين المظهر وإظهار النعمة، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني أنمار، قال جابر: فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل، فقلت: يا رسول الله، هلّم إلى الظل. قال: فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقمت إلى غرارة لنا فالتمست فيها شيئا، فوجدت فيها جرو قثاء، فكسرته ثم قربته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "مِن أين لكم هذا؟" قال: فقلت: خرجنا به يا رسول الله من المدينة. قال جابر: وعندنا صاحب لنا نجهزه يذهب يرعى ظهرنا، قال: فجهزته ثم أدبر يذهب في الظهر، وعليه بردان له قد خلقا، قال: فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقال: "أما له ثوبان غير هذين؟" قلت: بلى يا رسول الله له ثوبان في العيبة كسوته إياهما، قال: "فادعه، فمره فليلبسهما". قال: فدعوته فلبسهما ثم ولّى يذهب، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما له ضرب الله عنقه، أليس هذا خيرا له؟" قال: فسمعه الرجل فقال: يا رسول الله في سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "في سبيل الله". قال: فقتل الرجل في سبيل الله) [13].

العناية بنظافة المسجد وتطييبه وكذا سائر دورِ العبادة

يحبّ الإنسان السويّ أن يكون منزله أو المكان الذي يرتاده نظيفًا جميلًا، بل يبذل في ذلك المال والوقت، وبيوت الله أولى أن تصان وتنظف وترتّب، فكيف يستسيغ بعضُ الناس أن يكون بيتُه مرتّبا نظيفًا جميلًا ولا يرعى ذلك في المساجد؟ وفي هذا السياق وجدنا الإمام ابن المنير يذهب مذهبًا –ربما يكون مبالغا فيه–، قال: (لما شيّد الناس بيوتهم وزخرفوها ناسب أن يُصنع ذلك بالمساجد صونًا لها عن الاستهانة". وتُعقّب بأنّ المنع[14] إن كان للحثّ على اتباع السلف في ترك الرفاهية فهو كما قال، وإن كان لخشية شغل بال المصلي بالزخرفة فلا، لبقاء العلة)[15].

والسنّة النبويّة قد رغّبت في تنظيف المساجد وتطييبها، وأمرت بصيانتها من كلّ ما يسيء لها، ومنعت من كلّ ما ينفّر روادَها. فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في القبلة فشقّ ذلك عليه حتى رئي في وجهه، فقام فحكّه بيده فقال: "إنّ أحدكم إذا قام في صلاته، فإنّه يناجي ربّه، أو إنّ ربّه بينه وبين القبلة، فلا يبزقنّ أحدكم قِبَل قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه". [متفق عليه]. وفي رواية: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة في قِبلة المسجد، فغضب حتى احمرّ وجهه، فقامت

13– مالك. الموطأ. باب ما جاء في لبس الثياب للجمال بها 1336/5 (بخدمة مصطفى الأعظمي).

14– يعني منع زخرفة المساجد.

15– فتح الباري 541/1

امرأة من الأنصار فحكّتها وجعلت مكانها خلوقًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحسن هذا»[16]. [النسائي وابن ماجه].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور، وأن تنظّف وتطيّب). [أبو داود والترمذي]. وعن جابر رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أكل الثوم أو البصل والكراث فلا يقربنّ مسجدنا؛ فإنّ الملائكة تتأذّى مما يتأذى منه بنو آدم". [متفق عليه]. وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عُرضت عليّ أعمالُ أمّتي حسنُها وسيئُها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق، ووجدت في مساوي أعمالها النخاعةَ تكون في المسجد لا تُدفن". [مسلم].

قال النووي: (ظاهره أنّ القبح والذمّ لا يختصّ بصاحب النخاعة، بل يدخل فيه هو وكلّ من رآها ولا يزيلها بدفن أو حكّ، ونحوه)[17].

قلت: ويؤيد هذا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يسأل عن الفاعل كي يدفن نخامته، بل فعل ذلك هو بنفسه أو أمر غيره بذلك. والله أعلم.

بل وجدنا من يتطوّع بتنظيف المسجد تديّنا بترغيب السنّة فيه، وحُمد على ذلك، ونال به صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم ودعاءه، فعن أبي هريرة أن رجلا أسود –أو امرأة سوداء– كان يقم المسجد فمات، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنه، فقالوا : مات، قال : أفلا كنتم آذنتموني به! دلوني على قبره–أو قال قبرها– فأتى قبرها فصلى عليها" [البخاري].

فنظافةُ المسجد وتطييبه وتنسيقُ بنائه وترتيبُ مرافقه يبعث في النفس الارتياح، ويعكس صورة جميلة عن أصحابه، فكم من مساجد عامرةٍ بالزوار تُقصد للاستمتاع بالنظر إليها، والتجوال في أفنيتها ونحو ذلك مما يجعل الناظر يُكبِر أصحابَها، وربما كانت سببًا في هداية كثير من الناس.

ومن ذلك التجمّل في المناسبات والأعياد ولقاء الأحباب والوفود

ومن سنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم التجمّل للمناسبات كالأعياد ولقاء الوفود، فقد صحّ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ عمر جبّة من إستبرق تباع في السوق فأخذها فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ابتع هذه تجمّل بها للعيد والوفود، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّما هذه لباس من لا خلاق له»، فلبث عمر ما شاء الله أن يلبث، ثم أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبّة ديباج فأقبل بها عمر، فأتى بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:

---

[16]– حمل الحافظ العراقي هذا الحديث والحديث الذي قبله على أنّهما واقعتان، قال: (فهذا يدلّ على اختلاف واقعتين أو وقائع من غير تعارض). [طرح التثريب 346/2]. وقال أبو العباس القرطبي: (يصحّ الجمع بين هذه الأحاديث بأن يقال: كان ذلك في أوقات مختلفة: ففي وقت حكّها صلى الله عليه وسلم وطيّبها بيده، ومرة أخرى فعلت هذه المرأة ما ذُكر. ويمكن أن يقال: نسب الحكّ والتطييب للنبيّ صلى الله عليه وسلم من حيثُ الأمرُ به، وللمرأة من حيث المباشرةُ). [المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 91/5].

[17]– شرح صحيح مسلم للنووي 37/3 رقم 553

يا رسول الله، إنك قلت إنما هذه لباس من لا خلاق له، وأرسلت إلي بهذه الجبة؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تبيعها، أو تصيب بها حاجتك» [البخاري].

وفي هذا الخبر إقرار من النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه في أصل التجمّل للعيد والوفود ونحو ذلك، وإنّما نهاه عن جنس اللباس، فإنّه كان من إستبرق، وهو غليظ الحرير. فيستحب أن يختار المرء من أحسن لباسه للمناسبات السارة أو لقاء الوفود والضيوف- وإن كانوا غير مسلمين- فإنّ ذلك من الجمال المحمود في ديننا، وبذلك نكون قد أحسنّا إبداء الصورة الجميلة عن الإسلام، ولذا اعتنى السلف بحسن الهيئة والمظهر الذي يرفع من مقام الإسلام والمسلمين.

وقد علموا أنّ المرء قد يُزدرى من خلال لباسه، بل قد يُزدرى دينُه بسبب ذلك، سئل ابن عمر رضي الله عنهما: ما ألبس من الثياب؟ قال: (ما لا يزدريك فيه السفهاء ولا يعيبك به الحلماء..) [الطبراني ورجاله رجال الصحيح] وهذا معيار منضبط فيما يلبس الإنسان، إذ لم يعيّن له جنس الملبوس ولا صفته، وإنما ذكر له ما ينضبط في كلّ عرف ما لم يكن منهيا عنه شرعا.

وعن سفيانَ الثّوريّ رحمه الله قال: (كانوا يكرهون الشّهرتين، الثّيابَ الجيادَ الّتي يشتهر فيها ويرفع النّاسُ إليه فيها أبصارهم، والثّياب الرّديئةَ الّتي يحتقر فيها ويُستَذلّ دينه". [ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ص74].

فانظر كيف ربط هذا الإمام الزاهد اللباس بعزّ الدين أو ذلّه، فقد يُهين المسلم نفسه ويهين معه دينه من خلال لباسه، فمن قال إنّ السلف الصالح لم يعتنوا بالمظهر مع كثرة زهدهم؟

وحقيقة الزهد مكوّنة من أحرف، كما روي عن ابن عباس قال: (الزهد ثلاثة أحرف: زاي وهاء ودال؛ فالزاي: زاد المعاد، والهاء: هدى الدين، والدال: دوام الطاعة).

التجمّل والمظهر الحسن وسيلة لدوام العشرة والألفة

ومن ذلك حثُّ النبي صلى الله عليه وسلم على النظر إلى من يُراد خطبتُها لما في ذلك من تحصيل المطلوب، وإدراك المرغوب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأتاه رجل فأخبره أنّه تزوج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنظرت إليها؟» قال: لا. قال: «فاذهب فانظر إليها؛ فإنّ في أعين الأنصار شيئًا». [مسلم].

وعن المغيرة بن شعبةَ رضي الله عنه أنّه خطب امرأةً فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلّم: "انظُرْ إليها فإنّه أحرى أن يؤدم بينكما"- أي أَحرى أن تدوم المودّةُ بينكما- [الترمذي]. وعن جابر بن عبدِ الله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا خطبَ أحدكم المرأةَ فإن استطاع أن ينظرَ إلى ما يَدعوه إلى نكاحها فليفعلْ»، قال: فخطبتُ جاريةً، فكنت أتخبّأُ لها حتّى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وتزوّجها فتزوّجتها.. [أبو داود].

ولا شكّ أنّ الحكمة من النظر إلى من يراد خطبتها هو التحقّق مما يدعو إلى النكاح، وهو الجمال وما تطمئن إليه نفس الخاطب، والجمال الذي ينبغي أن يقصد هو ما يحصل به التعفّف، وكلّ بحسب ما يشتهيه من المرأة، والناس فيما يشتهون مذاهب، وليس المعنى البحث عن الجمال الفائق الذي قد لا يجده الرجل، وللإمام أحمد فهم سديد في هذا الباب، قال: (إذا خطب رجل امرأة

سأل عن جمالها أولاً، فإن حُمد سأل عن دينها، فإنْ حمد تزوّج، وإن لم يحمد يكون ردّها لأجل الدين، ولا يسأل أوّلا عن الدين فإنْ حُمد سأل عن الجمال، فإنْ لم يحمد ردّها، فيكون ردّها للجمال لا للدّين)[18].

قال شاه ولي اله الدهلوي: (والسبب في استحباب النظر إلى المخطوبة أن يكون التزوج على رؤية، وأن يكون أبعد من الندم الذي يلزمه إن اقتحم في النكاح ولم يوافقه فلم يرده، وأسهل للتلافي إن ردّ، وأن يكون تزوجها على شوق ونشاط إن وافقه، والرجل الحكيم لا يلج موجاً حتى يتبين خيره وشره قبل ولوجه)[19].

ولقد رغب الشرع للأزواج في التزيّن لما في ذلك من تثبيت المحبّة ودوام الألفة، وهذا التزين لا يخصّ المرأة دون الرجل، ما دامت الغاية هي تحقيق المودّة ودوامها، فالرجل أيضا يندب له التزيّن لزوجته، وهذا ما فهمه السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم. ومنه قول ابن عباس: "إني أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزيّن لي".

وجاء عن عمر بن الخطاب قولا صريحا في اختيار الخاطب حسنِ الصورة والهيئة للبنت فقال: رضي الله عنه: (لا تُكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح؛ فإنّهن يُحِبِن ما تحبّون). [سعيد بن منصور 211/1]

وفي رواية بلفظ: (يَعمد أحدكم إلى بِنته فيُزوّجُها القبيحَ، إنّهنّ يُحْبِبْنَ ما تُحبّون)، يعني: إذا زوّجها الدّميم كرهتْ في ذلك ما يَكره، وعصتِ اللهَ فيه).[مصنف عبد الرزاق 159/6]

وحكى القرطبيّ عن يحيي بن عبد الرحمن الحنظلي قال: أتيت محمد بن الحنفية رضي الله عنه، فخرج إلى في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية، فقلت له: ما هذا؟ قال محمد: إن هذه الملحفة ألقتها علي امرأتي ودهنتني بالطيب وإنّهن يشتهين منّا ما نشتهيه منهنّ)[20].

وروي أنه دخل على الخليفة عمر زوجٌ أشعث أغبر ومعه امرأته وهي تقول: "لا أنا ولا هذا لا تريده، لا أنا ولا هذا"، فعرف كراهية المرأة، لزوجها فأرسل الزوج ليستحمّ ويأخذ من شعر رأسه، ويقلم أظافره، فلما حضر أمَرَه أن يتقدم من زوجته فاستغربته ونفرت منه، ثم عرفته، فقبلت به ورجعت عن دعواها، رجعت إذن عن طلب الطلاق، فقال عمر: وهكذا فاصنعوا لهن فوالله إنّهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم.

---

[18]- شرح منتهى الإرادات. البهوتي 122/5

[19]- حجة الله البالغة. شاه ولي الله الدهلوي 331/2 (نسخة محمد شريف سكر)

[20]- الجامع لأحكام القرآن 97/5

المحاضرة الرابعة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في اللباس

كان هديه صلى الله عليه وسلم في اللباس الاعتدال وعدم التكلّف، فكان يلبس من كلّ ما هو متوفّر له في زمانه – مما هو مباح–، ولم يكن يخصّ نوعا من اللباس، فكان يراه الرائي بالقميص، ويراه الرائي بالحبرة، ويراه بالإزار والرداء، وغير ذلك، فلم يكن يخصص نوعًا واحدًا وإن كان من أحبّ اللباس إليه كما التزم بعض الناس– اليوم– لبس القميص دون غيره، وقد أنكر بعض السلف التزام نوع من اللباس، فعن جابر بن أيوب قال : (دخل الصّلتُ بن راشد على محمد بن سيرين وعليه جُبة صوف، وإزارُ صوف، وعِمامة صوف، فاشمأزَّ منه محمد، وقال: أظنّ أنّ أقواماً يلبسون الصوف ويقولون: قد لبسه عيسى بن مريم، وقد حدثني من لا أتهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لبس الكتان والصوف والقطن، وسُنَّةُ نبينا أحقُّ أن تُتَّبَعَ)[21].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سنّها وأمر بها ورغّب فيها وداوم عليها وهي هديه في اللباس: أن يلبس ما تيسر من اللباس، من الصوف تارة، والقطن تارة، والكتان تارة، ولبس البرودَ اليمانيةَ والبردَ الأخضرَ ولبس الجبّةَ والقَباءَ والقميصَ والسراويلَ والإزارَ والرداءَ والخفَّ والنعلَ وأرخى الذؤابةَ من خلفه تارةً وتركها تارةً)[22].

معيار اللباس في السنّة النبويّة

لم يفرض النبيّ صلى الله عليه وسلم على أمّته نوعًا من اللباس أو طريقة في اللبس، ولم يأمر بتغيير ما يلبسه كلّ قوم بعد إسلامهم، إنّما جاءت السنّة بمواصفات لما يُمنع من هذا اللباس، وما عدا ذلك فهو على أصل الإباحة، وكذلك كان أصحابه صلى الله عليه وسلم حين فتحوا الأمصار لم يأمروا أحدًا أن يتخلّى عن لباسه للباس أهل مكة، بل علّموا الناس ما كان ينهى عنه من أجل أوصاف معيّنة بيّنتها السنّة[23].

ما يمنع وما يذمّ[24] من اللباس في سنة النبي صلى الله عليه وسلم

- **لباس الشهرة:**

لما روى أبو داود عن ابن عمر قال في حديث شريك يرفعه قال: "من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبا مثله" ومن طريق أبي عوانة: "ثم تلهب فيه النار". [أبو داود]

عن ابن عمر قال: (من لبس شهرة من الثياب، ألبسه الله ذلة) [ابن أبي شيبة والبيهقي في الشعب].

---

[21]– أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الشيخ الأصبهاني [ح 314]

[22]– زاد المعاد. ابن القيم. 143/1

[23]– ولذا وجدنا من أصحاب النبي صلى الله عليه الإرشاد إلى مثل هذا كما جاء في قول ابن عمر رضي الله عنهما : (البس ما لا يزدريك فيه السفهاء ولا يعيبك فيه الحلماء). وكذلك جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كلْ ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة).

[24]– ليس الغرض من ذكر هذا بيان الحكم الشرعي لما يذكر من المسائل، بل قصدت ما يذم من اللباس سواء على وجه التحريم أم على وجه الكراهة.

وجاء عن الإمام أحمد أنّه رأى على رجل بردًا مخلطًا بياضًا وسوادًا فقال: ضع عنك هذا والبس لباس أهل بلدك). [الآداب الشرعية والمنح المرعية. ابن مفلح الحنبلي (227/3)]

- **إسبال الإزار بخيلاء (على رأي الجمهور)**[25]:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة. فقال أبو بكر: إنّ أحد شقّيَّ يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك لست تصنع ذلك خيلاء " قال موسى- أحد رواة الحديث وهو ابن عقبة- فقلت لسالم: أذَكر عبد الله: "من جر إزاره" قال: لم أسمعه ذكر إلا ثوبه". [متفق عليه]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة". فقالت أم سلمة رضي الله عنها: فكيف يصنعن النساء بذيولهن؟ قال: "يرخين شبرا"، فقالت: إذًا تنكشف أقدامهن. قال: "يرخينه ذراعا لا يزدن عليه". [الترمذي: حسن صحيح والنسائي...].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما أسفل من الكعبين ففي النار". [البخاري].

- **لباس الخيلاء**

لما روى البخاري معلقا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة". وقال ابن عباس: (كُلْ ما شئت، والبسْ ما شئت ما أخطأتك اثنتان: سرف، أو مخيلة).

- **لباس الحرير للذكور**

عن حذيفةَ رضي اللهُ عنه قال: سمعتُ النّبِيَ صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تلبَسوا الحرير ولا الدّيباجَ، ولا تشربوا في آنية الذّهب والفضّة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنّها لهم في الدّنيا ولنا في الآخرة. [متفق عليه].

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة".[البخاري]

---

[25]- مسألة إطالة الثوب أو الإزار فوق الكعبين مسألة فقهية خلافية، مبناها على خلاف أصوليّ وهو: هل يحمل المطلق على المقيّد في الأحاديث أو لا يحمل، وقد اختلف العلماء فيها على رأيين، فذهب الجمهور إلى أنّ تحريم إطالة الثوب تحت الكعبين خاصّ بحال الخيلاء، فمن لم يقصده فلا يحرم، وذهب طائفة من العلماء- وأكثرهم من المتأخرين المعاصرين- إلى تحريم إطالة الثياب فوق الكعبين مطلقا، إذ لم يحملوا المطلق على المقيّد. لكنّهم لم يختلفوا في أنّ السنّة في اللباس هو التشمير. وكلّ ما ذكر من الاختلاف في هذه المسألة لا ينبغي أن يرقى إلى أن يكون سببًا لتفريق كلمة المسلمين، ودعوة للمفاصلة بتصنيفهم إلى سُنيّ وبدعيّ، ولا أن يرقى ليكون من مسائل العقيدة كما سمعته من بعض طلبتنا في الجزائر ممن درستهم، حيث قاسوا موضوع الإسبال على مسألة المسح على الخفّين، لكون الإمام الطحاويّ قد ذكرها في عقيدته، وهذا من سوء الفهم لكلام العلماء وتوجيه سيء إذ لم يدروا لِمَ ذكرها الإمام الطحاويّ دون سائر مسائل الخلاف، بل غدت قضيةُ الإسبال ميزانًا للولاء والبراء، ومعيارًا للاتباع والابتداع مع أنّها مسألة فقهيّة خلافيّة – عند أهل السنة أنفسهم-، سببها اختلاف أصوليّ: وهو: "هل يحمل المطلق على المقيّد أو لا"، ومن أخرجها عن هذا السياق فقد غلط. والله أعلم وهو الهادي للصواب.

وعن البراءِ رضي اللهُ عنه قال: أمرنا النّبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعٍ: عيادةِ المريض، واتّباعِ الجنائز، وتشميتِ العاطسِ، ونهانا عن: لُبسِ الحريرِ، والدّيباجِ، وَالقسِّيّ، والإستبرقِ، والمياثر الحُمْرِ. [متفق عليه].

وعن عليّ رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ حريرا فجعله في يمينه، وأخذ ذهبا فجعله في شماله، ثم قال: "إنّ هذين حرام على ذكور أمتي" [أبو داود والنسائي..].

- **لباس الرجل تلبسه المرأة ولباس المرأة يلبسه الرجل:**

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبّهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال). [البخاري]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل). [أبو داود].

- **اللباس الكاشف للعورة:**

حرم الشرع إظهار الرجل أو المرأة العورة، وأمر بما يسترها، فعن المسور بن مخرمة قال: أقبلت بحجر أحمله ثقيل، وعليّ إزار خفيف، قال: فانحل إزاري ومعي الحجر لم استطع أن أضعه حتى بلغت به إلى موضعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة". [مسلم وغيره].

واستثنىَ من ذلك الزوجين؛ فيجوز لهما إظهارها فيما بينهما من غير حرج، لحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: قلت يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: "احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك". قال: قلت يا رسول الله: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: "إن استطعت أن لا يرى أحد عورتك فافعل". قلت: فإذا كان أحدنا خاليا؟ فقال: فالله أحق ان يستحيا من الناس". [رواه الأربعة وغيرهم].

قلت:

ونظرةٌ لعورةٍ محظورُ إلا لزوجينِ أتى مأثورُ

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنّة، ولا يجدن ريحها، وأنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا". [مسلم..]

- **لباس الكفار:**

فكلّ ما كان من اللباس شعارا للكفار منع شرعًا، وما لم يكن كذلك فالأصل فيه الجواز إلا أن يكون مذموما في ذاته لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول: "مَن تشبَّهَ بقومٍ فهو منهم". [أحمد وأبو داود].

وعبد الله بن عمرو بن العاص قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ثوبين معصفرين[26] فقال: "إنّ هذه من ثياب الكفّار فلا تلبسها". [مسلم]. وفي رواية: (رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم عليّ ثوبين معصفرين، فقال: "أأمُّك أمرتك بهذا؟". قلت: اغسلهما؟ قال: "بل أحرقهما". [مسلم].

- **لباس جلود السباع:**

لحديث المقدام بن مَعدي كَرِب قال لمعاوية: أنشدك بالله هل تعلم أنّ رسول نهى عن لُبوسِ جلود السِّبَاعِ والركوب عليها؟ قال: نعم. [أبو داود والنسائي].

- **لبس الدنيء من الثياب مع توّفر الجيد منها:**

عن أبي الأحوص عن أبيه أنّه: (أتى النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب دون، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ألك مال؟» قال: نعم، من كلّ المال. قال: «من أيّ المال؟». قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: «فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك أثر نعمة الله وكرامته». [النسائي]. وفي رواية: قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني سيئ الهيئة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل لك من شيء؟» قال: نعم من كل المال قد آتاني الله. فقال: «إذا كان لك مال فلير عليك». [النسائي].

المحاضرة الخامسة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته

إظهار المحبّة للزوجة ووفائه لها

إظهار المحبّة من الزوج لزوجته- قولاً وسلوكًا- يزيد في سعادتهما، ويثبت ودّهما، ولا شكّ أنّ الزوج يعجبه أن تحدّثه زوجته بحبّها له كما أنّها تحبّ ذلك منه، وتحبّ أن يبدي وفاءه لها، كما جاء في حديث عائشة في ذكر أخبار أمّ زرع الطويل وفيه: "كنت لك كأبي زرع لأم زرع"-أي في المحبة والوفاء وحسن العشرة- فقالت عائشة: بأبي وأمي لأنت خير من أبي زرع لأم زرع). [البخاريّ].

بل إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صرّح بحبّ خديجة رضي الله عنها كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: (ما غرت على نساء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلا على خديجة. وإني لم أدركها. قالت: وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا ذبح الشاة فيقول: "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة". قالت، فأغضبته يوما فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إني قد رزقت حبّها". [مسلم].

---

[26]- المعصفر ما صبغ بالعصفر وهو نبات يستخرج منه صبغ أحمر، قال أبو العباس القرطبي في المفهم : (المعصفر: المصبوغ بالعصفر. وهو صبغ أحمر). واختلف العلماء في لبس الثوب المعصر لغير المحرم، فقيل النهي فيه للتحريم، وقيل للكراهة، وقيل: يمنع ما اشتدت حمرته، ويرخص فيما خف منه، وهو قول عطاء وطاوس، وقيل: يمنع في المحافل والأسواق، ويرخص في البيوت، وهو قول الإمام مالك، وقيل: المنع بعد النسيج لا قبله، وهو قول الخطابي، أما لبسه للمحرم فعلى المنع. [انظر: فتح الباري لابن حجر، وشرح النووي، والمفهم لأبي العباس القرطبي...الخ

فلا يمنع الزوج شيءٌ من التصريح بحبّ زوجته؛ فإنّ هذا من حسن العشرة، ومثبّت الألفة.

مدح الزوج زوجته

وهو -كذلك- من حسن العشرة الذي يدخل السرور والبهجة في نفس الزوجة، ويديم السعادة ويوفّر الهناء النفسيّ بين الزوجين، وهو سلوك قليل من الناس من يفعله مع طول العشرة- عند كثير من الناس، غير أنّه في بداية الحياة الزوجيّة الأمور على ما يرام، فالتمادح كثير والمجاملة أكثر، ومع مرور الزمن تذهب هذه الخصلة حتى لا تكاد تسمع من الزوج مدحًا وثناءً إلا ما رحم الله، بل لا تسمع إلاّ العتاب، ولا تلحظ إلاّ ذكر النقائص ونحو هذا، لكن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الرفيق بأزواجه المحبّ لهنّ كان لا يفوّت فرصة في مدحهنّ والثناء عليهنّ، وقد فعل ذلك مع أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فعن أنس بن مالك بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "فضل عائشة على النّساء كفضل الثريد على سائر الطعام". [مسلم].

فاذكر أيها الزوج محاسن زوجتك، وإن رأيت منها بعض مالا يرضيك، فإنّ الثناء والمدح يبعثان الثقة في نفسها، ويدفعانها لإصلاح النقائص منها، وهذا لا يخصّ الزوج بل على الزوجة أيضا أن تذكر محاسن زوجها وتثني عليه خيرًا، فإنّ الزوج يحبّ ذلك من زوجته، ويجعله لطيفًا وودودًا.

إعانته لأزواجه

ومن ذلك ما جاء عن عائشة، قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، وقالت: كان بشرا من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه) [الترمذي].

ومن ذلك أيضا ما جاء أنس رضي الله عنه في قصّة زواج النبيّ صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي بن أخطب وفيه: (...ثم خرجنا إلى المدينة. قال-أنس-: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب) [البخاري].

ومن لطيف عشرته لأزواجه

ما جاء عن أمّ المؤمنين عائشة أنّها كانت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفر قالت فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: "هذه بتلك السبقة". [أبو داود].

إطعام الزوج زوجته بيده بوضع لقمة في فيها ونحو ذلك من المباسطة مع الزوجة

فقد صحّ ذلك من حديث سعد بن أبي وقاص أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال له: "إنّك ما أنفقت من نفقة تبتغي بها وجه الله حتى اللقمة تضعها في فمِ امرأتك إلا أجرت عليها".

ولنتأمّل في قوله صلّى الله عليه وسلّم: "حتى اللّقمة تضعها في فمِ امرأتك"، فقد يستهين كثير من الناس بهذا الصنيع، وهو في الحقيقة عمل صالح يتعبّد به، لأنّ فيه الأجر والثواب، وهو من حسن العشرة، ولطف السجيّة، وطيب الخُلق مع الزوجة، وفيه من دلائل الحبّ والمودّة ما فيه مع المرح والسرور، ولا يمنع المرأة أن تفعل مثل هذا مع زوجها، بل إنّ كلَّ ما يعبّر عن المودّة والحبّ بين الزوجين يستحبّ إظهاره ويذمّ كتمانه، وذلك كي تستمر الحياة السعيدة بينهما، وتتعمّق جذور المودّة والرحمة.

إنّ هذا السلوك بين الأزواج يُقصد به التعبّد-كما سلف ذكره- لأنّ في ذلك أجرًا، فيشترط فيه الإخلاص، فهو مع كونه من محاسن العشرة ومن مظاهر "التحضّر"-كما يقال-، كذلك هو من العبادات التي يتقرّب بها إلى الله تعالى، وبهذا نتميّز عن غيرنا من الغربيّين وغيرهم، ونثبت لهم أنّ الجمال الحقيقيّ هو في الإسلام.

ومن السنن المبيّنة لحسن العشرة المهجورة اليوم ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيضع فاه على موضع في، فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض، ثم أناوله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيضع فاه على موضع في). [مسلم].

بل لم يمنعه صلّى الله عليه وسلّم حيضة بعض أزواجه أن يضع رأسه في حجرها ثم يقرأ القرآن، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: (إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتّكئ في حجري وأنا حائض، ثم يقرأ القرآن).

وفي قول عائشة "وأنا حائض.." إشارة إلى رفع توهّم امتناع قراءة القرآن في حجر الحائض. كما أشار إلى هذا الإمام ابن دقيق العيد في إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام.

ومن لطيف العشرة أيضا تطييب المرأة زوجها بيدها وترجيل رأسه، وذلك ما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (طيّبتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بيدي لحرمه، وطيّبته بمنى قبل أن يفيض) البخاريّ.

وثبت عنها أيضا أنّها قالت: (كنت أرجّل رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا حائض) [البخاريّ].

وهذه كلّها من السنن المهجورة، غابت عن واقعنا، بل أصبحت من الأمور المستنكرة في بعض الأعراف.

اغتسال الزوج والزوجة معا

هذه سنّة صارت في زماننا من الأعمال التي يُخجل منها في أُسَرنا، مع أنّ فيها من التلطّف مع الزوجة وحسن العشرة ما فيه، وذلك فيما أحسب من قلّة العلم بسنّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وشمائله، وليس أحد أشدّ حياءً من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بل أمّهات المؤمنين هنّ من نقل إلينا هذه السنّة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم من إناء بيني وبينه واحد، فيبادرني حتى أقول: دع لي، دع لي، قالت: وهما جنبان). [مسلم].

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن زينب بنت أمّ سلمة حدّثته أنّ أمّ سلمة حدّثتها قالت: (كانت هي ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يغتسلان في الإناء الواحد من الجنابة). [مسلم].

فلا يمنع الزوجين أن يفعلا ذلك أحيانا خاصة إذا كانا يعيشان في بيت وحدهما أو مع أولادهما فقط، أمّا مع لأسرة الكبيرة -المكوّنة من الوالدين والإخوة والأخوات...-كما هو الحال في كثير من الأسر العربية فالأمر فيه حرج في الغالب، غير أنّه لا يمنع أن ينشر المسلم هذه السنّة ويتحدّث بها حتى تصير مألوفة، ولئن فات العمل بهذه الهدي لم يفت العلم به.

مراعاة مشاعر الزوجة كالغيرة

وذلك فيما جاء من حديث أنس بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبيُ صلى الله عليه و سلم في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت،

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصفحة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: "غارت أمكم"، ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها وأمسك المكسورة في بيت كسرت فيه ". [البخاري].

إيقاظ الأهل لصلاة الليل

هذه سنّة أخرى مهجورة، تركها أكثر الناس لما فيها من المشقّة ما لا يخفى، لكن فضلها عظيم، فلا يمنع ذلك أن يفعلها المسلم أحيانًا لا سيما عند نشاطه، وقد ثبت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فصلّت، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء". [صحيح الجامع].

المحاضرة السادسة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم مع سائر أصحابه

سخاؤه وكرمه وإيثاره لغيره على نفسه

وهو كثير جدّا، فإنّه صلى الله عليه وسلم كان كثير الجود والإحسان، خاصة في رمضان، فقد كان كالريح المرسلة، وكان يعطي عطيّة من لا يخشى الفقر، ومن كرمه أنّه كان يعطي الصدقة ويبذل الهدية، ولو كانت مما تعلقت بها نفسه، ومن ذلك ما رواه البخاريّ من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنّ امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها. فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره. فقال فلان اكسنيها، ما أحسنها. فقال: "نعم". فجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم في المجلس، ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنتَ، لبسها النبيّ صلى الله عليه وسلم محتاجًا إليها ثم سألتَه وعلمتَ أنّه لا يردّ سائلا؟ فقال: إنّي والله ما سألته لألبسها، إنّما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنَه. [البخاري]

مراعاة أحوال الناس: الكبير والضعيف ونحوهم

ومن ذلك حثّه للإمام أن يرفق بالمأمومين في الصلاة ولا يطيل عليهم إطالة تضرّ بهم.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يصلي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، قال: فتجوّز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذا، فقال: إنّه منافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنّا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحنا، وإنّ معاذا صلّى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوّزت، فزعم أنّي منافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ أفتّان أنت، ثلاثا، اقرأ: والشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، ونحوها". الشيخان.

ومثل هذا عن أبي مسعود الأنصاريّ قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنّي لأتأخّر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشدّ مما غضب يؤمئذ، فقال: "يا أيّها الناس، إنّ منكم منفرين، فأيّكم أمّ الناس فليوجز؛ فإنّ من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة". [مسلم]. وفي رواية أخرى: "وإذا صلى أحدكم وحده ليصل كيف شاء". [مسلم].

احترام المشاعر الأبوية ومراعاة حقّ الوالدين

إدخال الفرح والسرور على الوالدين خلق جميل من أخلاق الإسلام، وهدي طيب دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركتُ أبوي يبكيان فقال: "ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما". [رواه أبو داود وابن ماجه...].

قال ابن حبان في ترجمة هذا الحديث: (ادخال المرء السرور على والديه في أسبابه يقوم مقام جهاد النفل).

مراعاة مشاعر الأم تجاه ولدها

عن أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : "إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمّه. [البخاري]. وفي رواية عن أنس رضي اللهُ عنه مرفوعاً: "إنّي لأدخل في الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبيِّ، فأخفف من شدةِ وجد أمّه به". [مسلم].

مراعاة مشاعر الضعفاء كالعبيد وغيرهم

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته رحمته بالضعفاء كالعبيد، فكان يحثّ على حسن معاملتهم، وإطعامهم وكسوتهم بالمعروف، فعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذرّ الغفاري رضي الله عنه وعليه حلّة وعلى غلامه حلّة فسألناه عن ذلك فقال: إنّي سابيت رجلا فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي النبي صلى الله عليه و سلم: "أعيّرته بأمّه". ثم قال: "إنّ إخوانكم خولكم[27] جعلهم الله تحت أيديكم؛ فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإنّ كلّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم" [متفق عليه].

ومن مراعاة مشاعرهم ما جاء في قصّة أبي مسعود البدري قال: (كنت أضرب غلامًا بالسوط، فسمعت صوتًا خلفي: "اعلمْ أبا مسعود"، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا منّي، فإذا هو يقول: "اعلم أبا مسعود، أعلم أبا مسعود"، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: "اعلمْ أبا مسعود أنّ الله أقدر عليك منك على هذا الغلام"، قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا). [مسلم].

الحرص على مصالح الناس العامة والغضب من أجلها

وكان صلى الله عليه وسلم يغضب إذا ضُيِّعت مصالح الناس وأهملت، ويقسو على من يأكل حقوقهم وعلى من يستغل منصبه فيما وُلي عليه لمصلحته وأغراضه دون مصالحهم، ومن ذلك ما ثبت من حديث أبي حميد الساعدي قال: استعمل النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأسد، يقال له ابن اللتبية، فلما قدم، قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي له؟ أفلا يقعد في بيت أبيه وأمّه حتى ينظر أهدي إليه أم لا؟" [مسلم].

---

[27]- قال المناوي: بفتحتين جمع خائل أي خادم. [التيسير بشرح الجامع الصغير 102/1]

المحاضرة السابعة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم مع الصبيان

دعابته للصبيان وملاطفته لهم:

ومن ذلك حديث محمود بن الربيع قال: (عقلت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مجّةً مجّها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو). [البخاري].

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لذلك الغلام أخي أنس: "يا أبا عمير ما فعل النغير؟". والنغير: طائر كان لهذا الغلام فمات، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يواسيه، وهذا من التلطف بالصبيان.

التسليم على الصبيان

وهذا أدب جميل، غاب عن واقعنا، فلا ترى الكبير يسلّم على الصبيان، بحجّة أنّ الصغير هو الذي يسلّم على الكبير، وهذا حقّ ثبتت به السّنة، لكن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يسلّم على الصبيان كما جاءت به الأحاديث الصحيحة، منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (أنّه مرّ على صبيان فسلّم عليهم، وقال كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعله). [البخاريّ]

وعند النسائيّ بلفظ أتمّ: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار فيسلّم على صبيانها، ويمسح على رءوسهم ويدعو لهم".

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وهو مشعر بوقوع ذلك منه غير مرّة، بخلاف سياق الباب حيث قال: "مرّ على صبيان فسلّم عليهم"؛ فإنّها تدلّ على أنّها واقعة حال، ولم أقف على أسماء الصبيان المذكورين، وأخرجه مسلم والنسائي وأبو داود من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت بلفظ "غلمان" بدل صبيان). [فتح الباري].

ولأبي داود من طريق حميد عن أنس: "انتهى إلينا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا غلام في الغلمان فسلّم علينا، فأرسلني برسالة... الحديث".

قال الإمام ابن بطال: (في السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة).

تقبيله للأولاد

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ الأقرع بن حابس أبصر النبيّ صلى الله عليه وسلم يقبّل الحسن، فقال: إنّ لي عشرةً من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه من لا يَرحم لا يُرحم" [متفق عليه].

العدل بين الأود

وهو واجب، لا يجور الوالدان في العطية ونحوها، لما ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنّ أباه بشير بن سعد وهبه غلاما فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أكلّ ولدك نحلته مثل هذا؟ قال: لا. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فأرجعه". وفي رواية: "اتقوا واعدلوا بين أولادكم".

المحاضرة الثامنة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة أخطاء أصحابه

تصحيح النبي صلى الله عليه وسلم أخطاء أصحابه له أساليب متعدّدة ومتنوّعة، فتارة يصوّب الخطأ بالتلميح وتارة بالتصريح، وأحيانا كثيرة باللين وأحيانًا بالشدة، ومرات بالقول ومرات بالفعل وهكذا، ويمكن ذكر بعض النماذج من ذلك المنهج:

الرفق عند تصويب الأخطاء

الرفق صفة من صفات الله تعالى، والرفيق اسم من أسمائه سبحانه، ثبت ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه". [مسلم]. والرفق أيضا خلق من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف لا وقد "كان خلقه القرآن".

والرفق لا يأتي إلا بخير، كما ثبت من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حُرم الرفق حرم الخير، أو من يحرم الرفق يحرم الخير". [مسلم].

ومن ذلك: ما جاء عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه قال: بينما نحنُ في المسجد مع رسولِ الله صلّى الله عليه وَسلّم إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبولُ في المسجد فقال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "مَهْ مَهْ". قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ"، فتركوه حتّى بال، ثمَّ إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم دعاهُ فقال له: "إنّ هذه المساجدَ لا تَصلحُ لشيءٍ من هذا البولِ ولا القذَرِ إنّما هي لذكر الله عزّ وجلّ والصّلاةِ وقرَاءةِ القرآنِ" أوْ كما قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم. قال: فأَمر رجلا منَ القومِ فجاء بدَلْوٍ من ماءٍ فشنَّهُ عليه.[مسلم].

ومن ذلك أيضا حديث المسيء في صلاته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام قال: «ارجع فصل؛ فإنك لم تصل»، فرجع الرجل، فصلى كما كان صلى، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وعليك السلام»، ثم قال:« ارجع فصل؛ فإنك لم تصل» حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا، علمني. قال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدان ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها». [متّفق عليه واللفظ لمسلم].

إظهار الرحمة بالمخطئ

ومن ذلك ما صحّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله. هلكت. قال: "ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تجد رقبة تعتقها؟" قال: لا. قال: "فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟" قال: لا. فقال: "فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟" قال: لا. قال: فمكث النبيّ صلى الله عليه وسلم، فبينا نحن على ذلك أتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر- والعرق المكتل-

قال: "أين السائل؟" فقال: أنا. قال: "خذ هذا فتصدّق به". فقال الرجل: أعَلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها- يريد الحرتين- أهل بيت أفقرُ من أهل بيتي. فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه ثم قال: "أطعمه أهلك" [البخاري].

ومن ذلك أيضا: ما ثبت من حديث عمر بنِ الخطَّاب رضي الله عنه أنّ رجلاً على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبدَ اللهِ، وكان يلقّبُ حمارًا، وكان يضْحِكُ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم[28]، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد جلدهُ في الشّرابِ، فأُتِيَ به يومًا فأَمر به فجُلدَ، فقال رجلٌ من القومِ اللّهمّ الْعَنْهُ ما أكثر ما يُؤتَى به. فقال النّبِيّ صلى الله عليه وسلم لا تَلْعَنوهُ، فواللهِ ما علمتُ إلاّ أنّه يحبُّ اللهَ ورسولَهُ" [البخاري].

معالجة الخطأ ببيان الحكم

لا شكّ أن معرفة علّة الحكم مما يبعث على الاطمئنان، وأدعى للاقتناع، لذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعتمد على هذا الأسلوب في أحاديث كثيرة، منها:

عن جرهد الأسلميّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو كاشف عن فخذه، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «غطّ فخذك؛ فإنها من العورة». [الترمذي].

وعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: أتى رجل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: إنّي لأتأخَّر عن صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قطّ أشدّ غضبا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال: «يا أيّها النّاس إنّ منكم منفّرين، فأيّكم ما صلّى بالنّاس فليتجوّز فإنّ فيهم المريض والكبير وذا الحاجة " [متفق عليه].

استعمال الشدّة عند الحاجة

قد يلجأ النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى استعمال الشدّة في معالجة الخطأ، وذلك بما يقتضيه الحال، وليس هذا مطّردا بلا شكّ، لكن هناك من الأخطاء ما يدعو إلى التعنيف والشدّة على المخطئ. ومن ذلك: ما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها: (أنّ قُريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا من يُكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلّمه أسامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتشفع في حدّ من حدود الله»، ثم قام فاختطب فقال: «أيها الناس إنّما أهلك الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». [متّفق عليه].

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنّي لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غضب في موعظة قطّ أشد مما غضب يومئذ، فقال: «يا أيها الناس إنّ منكم منفّرين فأيّكم أمّ الناس فليوجز؛ فإنّ من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة». [متّفق عليه].

---

[28]- وفي هذا مظهر من مظاهر رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وتواضعه مع أصحابه حيث كان يضحك معهم ويلاطفهم، وفي هذا ردّ على المتزمّتين الذين يرون الضحك مخلاّ للأدب والمروءة، وها أنت ترى النبيّ صلى الله عليه وسلم يضحك لكن الضحك المشروع المحمود.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنّ رجلا أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله فقال: «كُلْ بيمينك». قال: لا أستطيع. قال: «لا استطعنت، ما منعه إلا الكبر» قال: فما رفعها إلى فيه). [مسلم].

تضع هذه الأحاديث بين أيدينا أسلوبا آخر من أساليب معالجة الخطأ، لجأ إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الحاجة؛ إذ دعا صلى الله عليه وسلم على الرجل حينما حمله الكبر على ترك الامتثال، ويشتد كذلك ويغضب حينما يخالف حكم من أحكام الشريعة وينتهك حتى يصل به الحد إلى الانتقام غيرة على حدود الله ومحارمه[29].

فالمعلم في بعض الأحيان يحتاج إلى استعمال نوع من الشدة لأن النفوس كما تنقاد باللين والرفق فإنها أيضا تنقاد بالشدة والقوة، فينبغي إذن أن يوازن بين هذا وذاك.

تصحيح الخطأ عمليّا

تصويب الخطأ عمليّا كثيرًا ما يكون أحرى أن يثبت في الذهن من مجرّد القول، وأجدر أن يستقرّ في القلب؛ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستعمله في مواضع مناسبةٍ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله مرّ بغلام يسلخ شاة، فقال له رسول الله: «تنحّ حتى أريك، فأدخل رسول الله يديه بين الجلد واللحم، فدحس بها حتى توارت إلى الإبط، وقال: يا غلام هكذا فاسلخ، ثم مضى وصلى للناس ولم يتوضأ». [ابن ماجه].

فهذا الغلام لما لم يحسن سلخ شاته صوب له النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك عمليا، وبين له كيفية السلخ حتى لا ينسى.

ومن ذلك أيضا ما ثبت من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه في قصة الحديبية وفيها: قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلمّا لم يقم منهم أحد، دخل على أمّ سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحبّ ذلك؟ اخرج لا تكلّم أحدًا منهم كلمة حتى تنحَرَ بُدْنَك وتدعو حالِقَك فيحلِقَك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غمّا». [البخاريّ].

فكان امتناعهم عن امتثال أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم خطأ بتأوّل، ما ألجأه صلى الله عليه وسلم إلى التطبيق العمليّ، حيث قام فنحر وحلق، فامثل الجميع لما رأوه فعل.

تصحيح الخطأ بالتعريض دون التصريح

لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم منفّرا في أسلوبه حين تصويب الخطأ، ولم يكن مشهّرا باسم المخطئ، بل كان يستر، ويعيب الفعل في ذاته، وهذا أدعى لقبول النصحية والارتداع عن الفعل الخطأ. فكان صلى الله عليه وسلم يراعي في تصحيح الخطأ في الملأ

29- انظر: فيض القدير 298/1، فتح الباري، 76/12

صيغة التعريض إذا اقتضت الحاجة إليه، كأن يصدر الخطأ من أحد ولاته أو واحد من عماله، وكان يراعي كذلك التصويب على الانفراد إذا كان مما لا يصلح على الملأ.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما بال أقوامٍ يرفعون أبصارهم إِلَى السَّمَاءِ في صلاتهم؟»، فاشتدّ قوله في ذلك حتّى قال: «لينتهنّ عن ذلك أو لتُخطَفنّ أبصارهم» [البخاري]

وعن عائشة قالت قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليس في كتاب الله» [متّفق عليه].

وعن أبي مسعود الأنصاريّ، قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله إنّي لأتأخّر عن صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا. قال: فما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشدّ غضبًا في موعظة منه يومئذ، فقال: «يا أيّها النّاس إنّ منكم منفّرين فمن صلّى بالنّاس فليوجز، فإنّ فيهم الضّعيف والكبير وذا الحاجة «. [متّفق عليه].

ترك المحاباة والتزام العدل عند التصويب

لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم يحابي أحدًا عند تصويب الخطأ، فلم يكن يراعي القريب والحبيب والصديق في ذلك، فالناس عندهم سواسية، بل كان يراعي تصويب الخطأ من حيث هو خطأ صدر ممن صدر، وأشهر قصّة في بيان ذلك ما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها: (أنّ قُريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا من يُكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلّمه أسامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتشفع في حدّ من حدود الله»، ثم قام فاختطب فقال: «أيها الناس إنّما أهلك الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». [متّفق عليه].

تصحيح الخطأ على الملأ إذا كان الخطأ علنًا

وذلك بيّن، وهو مناسبة للتعليم كذلك، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى الخطأ ارتكب على الملأ، فإنه لم يكن يؤجل التصويب، بل يستغل الفرصة للبيان والتعليم، ومن ذلك ما ثبت من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "اجلس فقد آذيت". [أبو داود وغيره].

ومثل ذلك ما ثبت من حديث عدي بن حاتم أنّ رجلًا خطب عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: (من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله"[30]. [مسلم].

---

[30]– قال النووي: (قال القاضي وجماعة من العلماء: إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضى للتسوية، وأمره بالعطف تعظيماً لله تعالى بتقديم اسمه كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: "لا يقل أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل ما شاء الله، ثم شاء فلان". والصواب أنّ سبب النهي أنّ الخُطَب شأنها البسط والإيضاح واجتناب الإشارات والرموز، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ليفهم، وأمّا قول الأوليين فيضعف بأشياء منها أنّ مثل هذا الضمير قد تكرّر في الأحاديث الصحيحة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقوله صلى الله عليه

المحاضرة التاسعة

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في المزاح

المزاح من أجل الضحك أمر تنجذب له النفس، وهذه النفس في حاجة إلى شيء من المرح والدعابة والضحك لكسر الملل، ولفوائد صحية قد ثبتت علميًّا، لكن بلا مبالغة كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكثروا الضحك؛ فإنّ كثرة الضحك تُميت القلب" [البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه..]. فكثرة الضحك هي التي منع منها الشرع؛ لأنّ فيها ضررًا وهو موت القلب أي قساوته، وهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يمزح ويضحك هو وأصحابه، لكن بحقّ وصدق وميزان، وما يُضحِك يجب أن يكون مشروعا، فالهزل بما هو باطلٌ باطل والدعابة بما هو منكر منكر، والمزح بما هو كذب كذب، فلا يمزح المرء إلا بما هو حقّ وصدق حتى لا يدخل من زمرة الكذّابين، إلا أنّه قد غلب في المزح الكذب وغيرُ الحقّ للأسف الشديد، وقد حذّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من هذا كما في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الذي يحدّث فيكذب ليضحك القوم ويل له ويل له ثم ويل له". [أبو داود والترمذي والنسائي..].

ضوابط المزاح في السنة النبوية

1- أن يكون المزاح بحق وصدق:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا (أي الصحابة): "يا رسول الله إنّك تداعبنا! قال صلّى الله عليه وسلّم: "لا أقول إلا حقاً" [الترمذي وقال: حسن صحيح].

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الذي يحدّث فيكذب ليضحك القوم ويل له ويل له ثم ويل له". [أبو داود والترمذي والنسائي..]

2- أن لا يكون فيه ترويع لمسلم.

لما جاء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال حدثنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في مسير فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى نبل معه فأخذها فلما استيقظ الرجل فزع فضحك القوم فقال ما يضحككم فقالوا لا الا انا أخذنا نبل هذا ففزع فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يحل لمسلم ان يروع مسلما". [أحمد].

وسلم: "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما" وغيره من الأحاديث، وإنّما ثنى الضمير ههنا لأنّه ليس خطبة وعظ، وإنما هو تعليم حكم، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه، بخلاف خطبة الوعظ فإنه ليس المراد حفظه وإنما يراد الاتعاظ بها، ومما يؤيد هذا ما ثبت في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة: الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً" والله أعلم

3- أن يكون غالبا على حال الإنسان

فعن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكثروا الضحك؛ فإنّ كثرة الضحك تُميت القلب" [البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه..]

أمّا صفة مزحه صلّى الله عليه وسلّم فجاءت فيها أحاديث، ومنها عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا (أي الصحابة): "يا رسول الله إنّك تداعبنا! قال صلّى الله عليه وسلّم: "لا أقول إلا حقاً" [الترمذي وقال: حسن صحيح].

4- أن لا يكون فيه سخرية بأحد

لقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ)

قال ابن حجر الهيتميّ: (إنّ المداعبة لا تنافي الكمال؛ بل هي من توابعه ومتمماته إذا كانت جارية على القانون الشرعيّ، بأن تكون على وفق الصدق والحق، ويقصد-بها- تأليف قلوب الضعفاء وجبرهم، وإدخال السرور عليهم والرفق بهم، ومزاحه صلّى الله عليه وسلّم سالم من جميع هذه الأمور، يقع على جهة الندرة لمصلحة تامّة، من مؤانسة بعض أصحابه، فهو بهذا القصد سنة، وما قيل: إن الأظهر أنه مباح لا غير فضعيف، إذ الأصل من أفعاله صلّى الله عليه وسلّم وجوب أو ندب للتأسّي به فيها إلا لدليل يمنع من ذلك ولا دليل هنا يمنع منه، فتعيّن الندب كما هو مقتضى كلام الفقهاء والأصوليين).

ومن دعابته اللطيفة ومزحه الجميل:

ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رجلا من أهل البادية يقال له زاهر بن حرام، كان يهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم الهدية، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن زاهرا بادينا، ونحن حاضروه»، قال: فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم جعل يلزق ظهره بصدره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يشتري هذا العبد»؟ فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسدا، قال: «لكنك عند الله لست بكاسد»، أو قال صلى الله عليه وسلم: «بل أنت عند الله غال». [ابن حبان والترمذي في الشمائل].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتّى يقول لأخ لي صغير يا أبا عمير ما فعل النغير". [متفق عليه].

وعن أنس أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله احملني قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إنا حاملوك على ولد ناقة". قال وما أصنع بولد الناقة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "وهل تلد الإبل إلا النوق؟". [أبو داود والترمذيّ. وقال: صحيح غريب].

المحاضرة العاشرة

صفة زهد النبي صلى الله عليه وسلم

الزهد في الأصل عبادة قلبيّة مبناها على إخراج الدنيا من القلب وترك التعلّق بها لذاتها، أو هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب كما قال الإمام الجنيد، أو كما قال آخر: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها. وقال ابن منظور: (والزُّهد: ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأَشياء كلها: ضد الرغبة)، وعلى هذا المعنى ليس الزهد ترك الدنيا بالكلية، وإيثار الفقر على الغنى، كلا بل الزهد هو جعل الدنيا وسيلة لمقصد آخر وهو الوصول بها إلى تحقيق صفاء العبودية لله تعالى، والظفر برضا الله وقبوله، قال المناوي رحمه الله: (فليس الزهد تجنّب المال بالكلية، بل تساوي وجوده وعدمه، وعدمُ تعلّقه بالقلب إليه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة الزاهدين، يأكل اللحم والحلوى والعسل، ويحب النساء والطيب والثياب الحسنة، فخذ من الطيبات بلا سرف ولا مخيلة، وإياك وزهد الرهبان)[31].

قال ابن القيم: (لا يستحقّ العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي المال والصور والرياسة والناس، والنفس، وكلّ ما دون الله، وليس المراد رفضها من الملك؛ فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان نبيّنا من أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة)[32].

فالنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يؤثر الفقرَ على الغنى، ولا حرص على الملك والغنى، بل كان يتعوّذ من فتنة الفقر ومن فتنة الغنى كما روت ذلك عائشة رضي الله عنها أنّه صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم إنّي أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شرّ فتنة الغنى وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال...الحديث". [متفق عليه].

وكان يقول في دعائه: "... ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا...". [الترمذي عن ابن عمر]. (أي لا تجعل طلب المال والجاه أكبر قصدنا أو حزننا، بل اجعل أكبر قصدنا أو حزننا مصروفا في عمل الآخرة، وفيه أن قليلًا من الهمّ فيما لا بد منه في أمر المعاش مرخّص فيه)[33].

ولم يمنعه زهدُه أن يمتلك بعض ما يحتاجه من متاع، فكانت له ناقةٌ يقال لها القصواء، وفرس يقال له اللحيف، وحمار يقال له عفير، وبغلة يقال لها الشهباء، وكذلك كان هديه في الطعام (لا يردّ موجودًا ولا يتكلّف مفقودًا، فما قرّب إليه شيء من الطيبات

---

[31]- فيض القدير شرح الجامع الصغير" للمناوي ج72/4

[32]- مدارج السالكين. ابن القيم

[33]- تحفة الأحوذي. المباركفوري 411/18

إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم، وما عاب طعاما قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه، ... وأكل الحلوى والعسل، وكان يحبّهما وأكل لحم الجزور، والضأن ...)[34] .

قال العلامة المعلمي: (أما في صغره فقد ورث من أبويه أشياء، ثم كفله جدّه وعمّه، ثم لما كبر أخذ يتجر ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الحقّ، كما وصفته خديجة رضي الله عنها، وقد امتن الله عليه بقوله: (ووجدك عائلًا فأغنى)، والعائل المقلّ، لم يكن ليسأل الله تعالى أن يزيل عنه هذه النعمة التي امتن بها عليه. أما ما كان يتفق من جوعه وجوع اهل بيته بالمدينة فلم يكن ذلك مسكنة، بل كان يجيئه المال الكثير فينفقه في وجوه الخير منتظرا مجيء غيره، فقد يتأخر مجيء الآخر وليس هذا من المسكنة)[35].

بل إنّ زهده صلى الله عليه وسلم كان علامة من علامات النبوّة، ذلك أنّه لو كان كاذبًا في دعوى النبوّة لما عزف عن الدنيا وزهد فيها، ولو أرادها لنالها. وزهد النبيّ صلى الله عليه وسلم كان اختياريا لا قسريًّا، وكان يتعبّد به إيثارًا لما عند الله، مع ما كان عليه من حبّ التجمّل والحثّ عليه، وما كان عليه من حبّ نسائه وبعض الأطعمة والثياب، لكن كلّ ذلك لم يكن له مستحكما بالقلب، شاغلا له وصارفًا عن كمال العبودية لله تعالى. وقد ثبت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ مَلكًا نزل من السماء فقال: يا محمد أرسلني إليك ربّك. قال: أفملِكًا نبيّ يجعلك أو عبدا رسولا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. فقال صلى الله عليه وسلم: "بل عبدًا رسولا". [أحمد 469/3 وابن حبان..]. فآثر أن يكون عبدًا رسولًا على أن يكون ملكًا رسولًا.

وعن عائشة قالت: (دخلت عليّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة مثنيّة، فانطلقت فبعثت إليّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما هذا يا عائشة؟ "قالت: قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت عليّ، فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا. قال: "ردِّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة". [البيهقي في الشعب].

فحقيقة الزهد أن تُعرض عليك الدنيا فتتركها اختيارًا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أحسب أحدًا ادّعى النبوّة أو الإمامة... كذبًا وزورًا ترك الدنيا وزهد فيها، وهذا هو الواقع المعيش.

صور من زهده صلى الله عليه وسلم

عن أبي ذر رضي الله عنه :كنت أمشي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حرّة المدينة، فاستقبلَنا أحدٌ ، فقال: "يا أبا ذر". قلت: لبيك يا رسول الله ، قال: "ما يسرّني أنّ عندي مثل أحُدٍ هذا ذهَبًا، تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا" عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم مشى فقال: إنّ الأكثرين[36] هم الأقلّون يوم القيامة إلّا من قال: هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم ... الحديث". [متفق عليه واللفظ للبخاري]

---

[34]- زاد المعاد. ابن القيم 147/1

[35]- حاشية الفوائد المجموعة، المعلمي ص22à

[36]- قال المناوي: (وهذا في حق من كان مكثراً ولم يتصدّق).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتّقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك. [البخاري].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء. فقال: "ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب، استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها" [الترمذي، وقال: حديث صحيح].